(٤٧) أبو عثمان الحيري[١]

ذكر الشيخ أبي عثمان الحِيري رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من أكابر الطائفة، مُعتبرًا عند أهل التصوف، رفيعَ القدر، عاليَ الهمَّة، مقبولاً لدى الأصحاب، مخصوصًا بأنواع الكرامات والرياضات، صاحبَ كلماتٍ شافية[٢] في الوعظ، وإشاراتٍ عليَّةٍ، كاملاً في فنون علوم الطريقة والشريعة.

وله كلام مؤثّرٌ في القلوب.

قال أهلُ الطريقةِ وأصحابُ الشريعة: ثلاثةٌ في الدنيا ليس لهم رابعٌ: أبو عثمان الحِيري في نيسابور[٣]، والجُنيد، في بغداد، وأبو عبد الله بن الجلاّء بالشام.

وقال عبد الله بن محمد الرازي: رأيتُ الجُنيد، ورُويمًا، ويوسف بن الحسين، ومحمد بن الفضل، وأبا علي الجرجاني وغيرَهم من المشايخ، فما رأيتُ أحدًا أعرفَ بالله من أبي عثمان.

---

(١) هو سعيد بن إسماعيل، وترجمته في: طبقات الصوفية ١٧٠، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ٩/ ٩٩، الرسالة القشيرية ٧٣، الأنساب ٤/ ٢٨٩، مناقب الأبرار ٣٧٩، المنتظم ٦/ ١٠٦، صفة الصفوة ٤/ ١٠٣، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٤٩٥، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٩، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢، العبر ٢/ ١١١، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٠٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٣٦، البداية والنهاية ١١/ ١١٥، طبقات الأولياء ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٧، نفحات الأنس ١٣٠، طبقات الشعراني ١/ ٨٦، الكواكب الدرية ١/ ٦٢٣، شذرات الذهب ٢/ ٢٣٠.

(٢) في (أ): صاحب كمالات شافية.

(٣) في (أ) قال أهل الطريقة في نيسابور والجنيد.

وانتشرَ منه التصوفُ في خراسان.

وصحب الجُنيد، ورويمًا، ويوسف بن الحسين، ومحمد بن الفضل رحمهم الله.

وله مشايخ ثلاثةٌ كبارٌ: يحيى بن معاذ الرازي، وشاه الكرماني، وأبو حفص الحداد رحمهم الله.

نقل أنه كان من أولاد الأكابر، ويذهبُ إلى الكتّاب، ومعه أربعةٌ من المماليك: حبشيٌّ، ورومي، وكشميري، وتركي، وعليه ثوبٌ من القصب، ومعه دواةٌ من الذهب، وعلى رأسه عِمامة فاخرةٌ، فمرّ في بعضِ الأيام بخانٍ خراب، ورأى فيه حمارًا ضعيفًا مقروحَ الظهر، وعلى ظهره غرابٌ ينقرُ على جرحه، وما كان له قوةُ الدفع، فرقَّ له، وقال لغلامه: أنت لأيِّ شيءٍ تُصاحبني؟ قال: لأكونَ لك موافقًا لرضاك. فدخل الخان، وخلع الجُبَّةَ الفاخرة، وغطّى بها ظهر الحمار، وخرج من الخان، فما وصل إلى البيت إلاّ وقد وردَ عليه حالٌ، وتشوَّشَ باله، ودخل مجلس يحيى بن معاذ رحمه الله، وحصل له فتوحٌ من كلامه، وكان يواظبُ مجلسَ يحيى مشغولاً بالرياضة إلى أن سمعَ أخبارَ شاه الكرماني، فطلبَ الإذنَ من أبويه، ورحل إلى كرمان، فلم يقبلْه شاه، وقال: أنت تعوَّدْتَ بالرجاء في مجلس يحيى بن معاذ، لأنَّ مقام يحيى إنّما هو على الرجاء، ومَنْ تربّى بالرجاء لا يتأتّى منه السلوك، لأنَّ الرجاءَ إذا كان بتقليدٍ لا يُورّثُ إلاّ الكسل[1]، والحالُ أن رجاءك تقليدٌ، ورجاءُ يحيى تحقيقٌ، والرجاء إذا كان عن تحقيقٍ لا يورّث[2] إلاّ الجدَّ والاجتهاد. فبقي هناك متضرِّعًا متذلّلاً إلى عشرين يومًا حتى دعاه شاهٌ إليه، وقبلَهُ وصحبه مدَّةً، واستفادَ منه فوائدَ كثيرة، ثم صحب أبا حفص الحداد، وانتفعَ منه، وتزوَّجَ بابنته.

---

(١) في (أ): لا يؤثر إلا الكسل.

(٢) في (أ): من علمه.

وقال: مضي عليَّ أربعون سنة ما وردَ عليَّ حالٌ أكونُ كارهًا له، حتى نُقل عنه أن شخصًا من المنكرين دعاه إلى بيته باسمِ الضيافة، فلمّا وصلَ إلى الباب، قال له: يا عبد البطن، ارجع ؛ليس هنا شيءٌ تأكلُهُ. فرجع، ثم عدا خلفه، وصاحَهُ وردَّه، فلمّا وصلَ إلى الباب قال: لك جدٌّ عظيم في الأكل، وليس هنا شيءٌ تشبع به. فرجع، ثم سعى خلفه، وقال: يا شيخ، ارجع. فرجع، فلمّا وصل إلى الباب قال: إن تأكل الحجر فتعال، وإلاّ فارجع. وهكذا إلى أربعين مرة، ولم يتغيَّرْ أصلاً، ثم تمرَّغَ الرجلُ بين يديه، وتابَ، وصار تلميذًا له، وتعجَّبَ من حلمه وسكونه. فقال أبو عثمان: هذا أمرٌ هيّنٌ، فإنَّ الكلبَ كلّما تطرده يرجع، وإذا تدعوه يجيءُ إليك، ولكنَّ شغلَ الرجال شيءٌ آخر.

نقل أنه كان يعبرُ في بعض الطرق، ومعه جماعةٌ من أصحابه، فجاء شخصٌ على طرفِ سطحٍ، ونثرَ عليه طستًا من الرَّماد، فغضبَ أصحابُه لذلك، فقال أبو عثمان رحمه الله: لا تغضبوا؛ فإن هذا مقامُ الشكر، إذْ من كان مُستحقًّا للنار قد صالحوا معه بالرماد.

قال أبو عمرو: إني تبتُ في ابتداء أمري في مجلس أبي عثمان، وكنت على التوبةِ مدّةً، ثم نقضتُ التوبةَ، واشتغلتُ بالمعاصي، وأعرضتُ عن مجلسِ الشيخ، وكنتُ إذا ألتقي به في الطريقِ أهَربُ عنه، حتى التقاني يومًا، وقال: يا ولدي[1]، لا تجالس مع الأعداء إلاّ إذا كنتَ معصومًا؛ فإنّهم يَفرحون إذا اطَّلعوا على بعضِ عيوبك، ويتحزّنون إذا وجدوك معصومًا منها، فإنْ أردتَ أن يصدرَ منك معصيةٌ، فتعالَ إلينا، فإنّا نحمل بلاءَك، ولا تُفرح بك أعداءك. قال: فلمّا سمعتُ كلامَ الشيخ بردَ قلبي عن المعاصي، وشبعت منها، وتبتُ توبةً نصوحًا.

نقل أنه كان يمضي في بعض الطُّرق، فاستقبله شابٌّ عيَّارٌ سكران، ومعه ربابٌ، فظنَّ أنَّ الشيخ ينهرُه عن ذلك ويزجرُه، فسترَ الربابَ في كمِّه، وأرادَ أن

(١) في (أ): يا وليّ.

يعبرَ، فقال له أبو عثمان على طريق الشفقة: لا تفزعْ، فإننا إخوة. فأثّرَ الكلامُ في فؤاده، ورجع وتاب، وذهبَ مع الشيخ إلى الخانقاه، وأمرَهُ الشيخُ بالاغتسال، وألبسَهُ خرقةً، ثم رفع رأسَه وقال: إلهي، وفينا ما علينا، فبقي ما عليك. فوردَ على الفتى في الساعةِ حالٌ من أحوال الرجال، حتّى تحيَّرَ الشيخُ في ذلك، وقال: شيءٌ كنّا نطمعُ فيه أن يحصل لنا في عمرٍ، قد حصلَ لهذا الفتى في لحظةٍ مجاناً، فعلمنا أنَّ الفضلَ بيد الله تعالى يُؤتيه من يشاء.

قيل له: نذكرُ اللهَ تعالى باللِّسان، ولا يُوافقنا القلب. فقال: اشكروا الله تعالى على أن أطاعَه عضوٌ من أعضائكم، فيمكنُ أن يوافقَ القلبُ بعد ذلك.

نقل أنه سُئل عن شخصٍ يدخل على جماعةٍ يحبُّ قيامَهم له، ويكرَهُ أن لا يقوموا له، فسكت، وما أجاب حتى اتَّفقَ يومًا في جماعةٍ فقال: سألوا منّي هذه المسألة، والجوابُ: أنّ مثلَ ذلك الشخص إن شاءَ فليمتْ يهوديًا، وإن شاءَ فليمتْ نصرانيًا.

قال: ينبغي أن تكون الصحبة مع الله تعالى بحسنِ الأدب، ودوام الهيبة، ومع الرسول ﷺ بمتابعةِ السُّنَّة، وملازمة ظاهر العلم، ومع الأولياء بلزومِ الخدمة، ومع الإخوان بالبشاشة والطلاقة، إنْ لم يكونوا في عصيان، ومع الجهّال بالشفقة والرحمة والدعاء.

وقال: إذا سمعَ التلميذُ شيئًا من كلام القوم، وعمل به، يظهرُ نورُه في آخر العمر في قلبه، وينفعُه حينئذ، ومن يسمع منه ذلك الكلام ينتفعُ به، ومن سمعَ من المشايخ كلامًا، ولم يعملْ به كان كحكايةِ سمعها، فحفظها، ثم عن قريبٍ ينسى.

وقال: من لم يكنْ في ابتداءِ أمره مُستقيمًا، لا يزدادُ إلاّ إدبارًا.

قال: لا يتمُّ رجلٌ إلاّ إذا استوى عنده أربعةُ أشياء: المنعُ، والإعطاء، والعزُّ، والذلُّ.

وقال: أعزُّ الأشياء على وجه الأرض ثلاثةٌ: عاملٌ يدلُّ عملُهُ على

علمِهِ[١]، وتلميذٌ غيرُ طامعٍ، وعارفٌ يعرف الله تعالى ويصفُهُ بلا كيف.

وقال: أصلُ الأمرِ في طريقنا السكوتُ ـ أي عمّا لا يعني ـ والاكتفاء بعلم الله تعالى.

وقال: من أعزَّه الله تعالى بالإيمان والمعرفة فحريٌّ أن لا يذلَّ نفسَه بالمعصية.

وقال: صلاحُ القلبِ في أربعة أشياء: الافتقارُ إلى الله تعالى، والاستغناءُ عمّا سواه، والتواضعُ لله، والأنسُ مع الله.

وقال: من لم يكنِ اللهُ غايةَ فكره في جميعِ الأحوال، يكون نصيبُهُ من الله تعالى ناقصًا في كلِّ المعاني.

و: من زهدَ عن نصيبه من الراحةِ والعزِّ والرِّياسةِ يصيرُ قلبُه فارغًا من جميع الهموم، ويرحمُ عبادَ الله.

و: المحزونُ من لا يفزعُ، ولا يسأل[٢] عن حزن غيره.

الحزنُ في كلِّ حالٍ فضيلةٌ للمؤمنِ إن لم يكن سببًا لمعصية[٣].

و: الخوفُ من عدل الله تعالى، والرجاءُ من فضله.

حقيقةُ الخوف الاحترازُ عن الدُّنيا ظاهرًا وباطنًا.

و: خوفُ الخواصِّ إنَّما يكون في الحالِ، وخوفُ العوام من الاستقبال.

الخوفُ يُقرِّبُ إلى الله، ويزيلُ عن القلب داءَ العُجب.

و: الصبرُ هو التعوُّدُ باحتمال المكاره.

و: شكرُ العامَّةِ على ما رزقَهم الله له من الطعام واللباس، وشكرُ الخاصَّة على ما يردُ على قلوبهم من المعاني.

---

(١) في (ب): يدل عمله على عمله.

(٢) في (أ): لا يفزع لأن يُسأل عن حزن.

(٣) في (أ): للمؤمن يوم يكن سببًا لمعصية.

أصلُ التواضع ثلاثةٌ: أن يذكرَ العبدُ جهلَه، ويعترفَ في الحال بتقصيره، ولا ينظر إلى تقصيرِ غيره.

التوكل هو الاكتفاءُ بالله، والاعتماد عليه.

و: من تكلَّم في الحياءِ ولم يكن مُستحيًا من الله فهو مُستدرجٌ مغرور.

اليقين ألاّ يكون قصدُه وهمُّه من أمورِ الغد إلاّ قليلاً.

الشوق ثمرة المحبّة، فمن أحبَّ الله اشتاقَ إلى لقائه.

بالخوف تفتح المحبَّةُ[1]، وبالملازمة يتأكَّدُ الأدب.

من لم يذقْ وحشةَ الغفلةِ لا يجدُ حلاوةَ الأُنس.

و: التفويضُ أن تُفوّضَ ما لا تعلمُ إلى علمِه.

و: التفويضُ مقدّمه الرّضا، والرِّضا بابُ الله العظيم.

و: الزهدُ عن الحرامِ فريضةٌ، وعن الحلال وسيلةٌ وقربةٌ.

و: علامةُ السعادة أن تكونَ مُطيعًا خائفًا من الردِّ، وعلامةُ الشقاوة أن تكونَ عاصيًا راجيًا للقبول.

و: العاقل من يتدبَّرُ[2] في الخلاص عن المكروه قبلَ أن يقعَ فيه.

كن مع الأغنياء بالتعزُّزِ، ومع الفقراءِ بالتذلّل، فإنَّ التعزُّزَ على الأغنياءِ تواضعٌ، والتواضعُ للفقراء شرفٌ وكرامة.

الفرحُ بالدنيا يزيلُ عن القلبِ الفرحَ بالله، والخوفُ عن الله يزيلُ عن القلبِ الخوفَ من الله، والرجاءُ من غيرِ الله يزيلُ عن القلب الرجاءَ من الله.

الموافقُ من لا يخافُ من غير الله، ولا يرجو من غيرِ الله، ويختارُ رضا الله على هوى نفسه.

---

(١) في (ب): وهمه من أمور الغد بالملازمة يتأكد.

(٢) في (ب): العاقل أن يتدبر.

و: الخوفُ من الله يقرّبُ إلى الله، والكِبر والعُجب يَقطعانك من الله.

إهانتُكَ الخلقَ[1] وتحقيرُهم داءٌ لا يقبلُ الداوءَ.

أصل العداوةِ من ثلاثة أشياء: الطمعُ في مال الناس، والطمعُ في إكرامهم، وطمعُ القبول منهم.

و: الأدبُ عمادُ الفقراء، وزينةُ الأغنياء.

كلُّ قطيعةٍ من الدنيا غنيمةٌ للمريد.

و: الإخلاصُ أن لا يكونَ للنفسِ حظٌّ في العمل.

وقال: الإخلاصُ نسيان رؤية الخلقِ بدوام النظرِ إلى الخالق.

نقل أن رجلاً من فرغانة قصدَ الحجَّ، فلمّا وصلَ إلى نيسابور زارَ أبا عثمان رحمه الله، فسلّم عليه، ولم يلتفِتْ إليه الشيخُ كما ينبغي، فقال الرجل: سبحان الله، رجلٌ يزورُ رجلاً ولا يُكرمُه! فقال الشيخ: من خلّفَ في بيته والدةً مريضةً، وقصدَ الحجَّ بدون رضاها، كذا يكون حالُه. فرجع الرجلُ، وواظبَ على خدمة والدته إلى أن ماتت. ثم قال: جئتُ إلى الشيخ، وتلقّاني بالإعزاز والقبول، ولازمْتُ خدمتَهُ إلى حين وفاته، ولمّا قرب وفاتُهُ مزَّقتُ جيبي، وشرعتُ في البكاء والصياح، ففتحَ الشيخُ أبو عثمان عينه، وقال: يا ولدي، خالفْتَ السُّنة، ومخالفةُ السُّنّةِ ظاهرًا علامةُ النفاق. وسلّم روحَهُ في غايةِ الحضور. رحمه اللهُ رحمةً خاصَّة، ورضي عنه.

اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأَرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه برحمتك يا رحيم.

* * *

(١) في (أ): إهانة الخلق.